obeikan.com

خطأ مع سبق الإصرار

obeikan.com

خطأ مع سبق الإصرار

مجموعة قصصية

هند عادل

حسناء للنشر

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى الحدث الذي مر في حياتنا فلم يترك شيءً بعده

كما كان قبله، إلى ما جعلني أعيد التفكير في

حياتي وأن أعطي الكتابة فرصة أخرى...

obeikan.com

obeikan.com

كنت قد توقفت عن الكتابة منذ أعوام، لكن حدث فاصل جرى في الحياة، جعلني أعيد التفكير في كثير من تفاصيلها، وأن أعطي لبعض الأمور فرصة ثانية. جاءت فرصة العودة للكتابة عندما أخبرتني شقيقتي نوال عن ورشة كتابة قلم رصاص مع الكاتبة شيماء الحامد، فكانت باب الرجوع للقلم والأوراق. تلتها العديد من الورش حتى اشتركت بورشة بحر القصة مع الكاتب محمد العبادي، التي كانت المدخل إلي المجموعة الأولى، ومكان ولادة أغلب قصصها. فلهم الشكر موصولاً لكل من تعلمت منه شيء أضاف لي، ولكل من تكرم بالقراءة والنقد، ولم يبخل برأي في سبيل إخراج أفضل لنصوص المجموعة.

obeikan.com

الأغنياء يصبحون فقراء، والفقراء ينقلبون أغنياء، وضعفاء الأمس أقوياء اليوم، وحكام الأمس مشردو اليوم، والقضاة متهمون، والغالبون مغلوبون، والفَلَك دوَّار، والحياة لا تقف، والحوادث لا تكُفُّ عن الجريان، والناس يتبادلون الكراسي، لا حزن يستمر، ولا فرح يدوم.

د. مصطفى محمود

obeikan.com

أصابع خالية

يتفحَّص يدَها بطرف عينيه بعد أن تفرَّس قسمات وجهها، ومَسَحَ جسدها بكلتا العينين، طمأَنَهُ خُلُوُّها من خاتم زواج، وبدأ ينتقي كلماته ليصطاد اهتمامها؛ يتحدَّث في هاتفه متعمِّدًا أن يُسْمِعَها، مستعرضًا مكانة معارفه. يوجِّه أسئلة مباشرة عساه يحظَى بإجاباتٍ تفتح له أبواب التَّعارف. تَرُدُّ باقتضابٍ، حتَّى لا تمنحه مُرَادَه، ولا تصطدم بعواقب تَجْهَلُ عُمْقَها. هكذا تفعل مع أغلب الرجال الذين تُقَابِلُهم في العمل، الطريق، الحي.

obeikan.com

فكَّرتْ أن تَتَخَلَّى عن ملابسها التقليديَّة، وتستبدلها بعَبَاءَةٍ مثل جارَاتها الأرامل؛ لم تتعرف على نفسها في المرآة.

تَخَلَّتْ عن ملابسها ذات الألوان المبهِجة، أو الفاتحة، اكتفت بالرَّمَادِيَّات، أو الأسود مع قليل من الأبيض. عندما رَأَتْها زميلاتُها في قميصٍ جديدٍ تَهَامَسْنَ:

- لم تَمضِ سنة على وفاة الرجل، وها هي ترتدي أنيقَ الثِّيَاب.

لم تَدْرِ ما وَجْه الأناقة في قميصٍ أَسْوَدَ لم يُفْلِح خطَّان أبيضان في كسر شَوْكَة قَتَامَتِه، أهملته في خزانتها، لا تخرجه إلا فيما ندر.

حاوَلَت الاحتفاظ بخاتم الزواج؛ مع تَأَخُّرِ المستحقَّاتِ الماليَّة، ضَغْطِ متطلّبات الأولاد المستمرة، عمليةٍ للصغرى، دروسٍ للكبير وغير ذلك مما استنزَفَ مدخراتها الذهبيَّة والنقديَّة.

أثناء وقوفها لتصوير بعض المستندات، أَمَالَ رأسه ناحية أذنها، تحرَّكَتْ شفتاه دون أن يعرف أحدٌ: ماذا قال؟! وكيف أصبح رأسه ملتصقًا بزجاج الآلة، هُرِعُوا جميعًا لإنقاذه من يدها:

- اتركوني، اغْرُبُوا عنِّي لقد تعبْتُ منكم.
- ماذا فعل؟!
- النجدة!
- أنتِ سَتَقْتُلِينَه! ماذا تفعلين؟!
- أَبْعِدِي يَدَيْكِ عنه! هل فقدْتِ عقلك؟! أَمْ ماذا؟!
- حرام! ارحموني!
- أَبْعِدُوا المجنونة ابنة المجنونة هذه!
- تعالَيْ! صلِّ على النبي!

بعد التحقيقات والخصم، تَمَّ نَدْبُها لجهةِ عملٍ أخرَى. لِتَجِدَ نفسها فريسةً لأعين جديدة.

قضت نهارها الأول في الهرب من أسئلة النظرات، وأسئلة الشِّفَاه، كان موعد الانصراف طَوْقَ الهُدْنَة من تلميحاته، وسِهَام بصره.

في إحدَى الواجهات الزجاجية على الرصيف، جذَبَها البريق الأصفر؛ اشترَتْها:

- لن يعرفَ أحدٌ أنَّها (صِيني)!

❊ ❊ ❊

obeikan.com

فستان ساتان

لِمَ تأتيني في أحلامي تحدِّثُني بهَمْسٍ، عن زواج زميلتي التي تَصْغُرُني بخمس سنوات؟! تُقَرِّبُ شفَتَيْكَ من أذني، تُحَدِّثُني عنها، عن جمالها، عن إعجاب الرجال بها. سأفرح لها إن تزوجت. كل يوم يمرُّ في الحياةِ الآلافُ يَفْعَلْنَ، والآلافُ يظلَلْنَ وحيداتٍ مثلي تَخَطّيْنَ الثلاثين.

لِمَ تفعل هذا؟! لقد تركتَنِي بعد ثلاث سنوات من الخطبة. لم أسمع منك خلالها سوَى الوعود، طلبات الصبر، التَّضحية من أجل أنْ يَجمعَنا بيتُنا السعيد.

obeikan.com

تخرَّجنا في الجامعة سويًّا؛ رغم أنَّكَ تكبُرُني بعامين، لكنه عَدَمُ اكتراثِكَ لشيء هو الذي جعلك ترسب مرَّتَيْن. لم أتوقع منك شيئًا وقتها، شَقَقْتُ طريقي في الحياة، لم يَدُرْ بذهني أنِّي قد أراك مجدَّدًا؛ حتَّى انتقل كلٌّ مِنَّا للعمل في نفس المكان.

أتذَكَّرُ هذا اليوم قبل عيد ميلادي السابع والعشرين بشهرين، عندما جِئْتَني مُتَحَيِّنًا فرصة وجودي في مكتب خالٍ من الزملاء.

- أريدُ أنْ أقابل والدك.
- أبي أنا! خيرًا؟! هل هناك شيء؟!

بابتسامة بهَرَتْني يومها:

- خيرٌ إن شاء الله.

لم يتردَّد أبي في الموافقة، خصوصًا وقد أخبرْتَه أننا سنتزوج خلال العام، أو عامٍ ونصف على الأكثر.

مَرَّ العام، والآخر، ولم تفِ بوعدك، في النهاية سافرْتَ على وعدٍ بالعودة بعد أحدَ عشَرَ شهرًا لنتزوج وتأخذَني معك.

جهَّزْتُ كلَّ شيء للزواج والسفر، لم يُعَارض أبي

أيَّ مَطْلَب، ولِمَ يفعل وقد قاربَتْ ابنتُه على عامها الثلاثين؟! كل ما يريده هو زواجها قبل أنْ يُوهِنَ الزمانُ عظامَه، وترفرف رُوحُه إلى سماء بارِئِها.

لم يَتَبَقَّ سوَى فستان الزفاف. أردْتُ أن تكون معي؛ لنختاره سويًّا، اخترْتُ عِدَّةَ فساتين (ساتان)، اعترضْتَ عليها جميعًا، حَتَّى تمسَّكْتَ بواحدٍ، خيَّرتني بينه وإتمام الزواج! لم أصدِّق أنَّك ستفعَلُها رغم انصرافك مع والدتك! انتظرت لأيام أن تعود إلى صوابك. عرفْتُ أنَّه لم يكنْ أمْرًا عَارِضًا، بل هو ما تحيَّنْتَ الفرصة لأجله. لا أصدق أنَّك لَم تجِدْ طوال تلك المدة مبرِّرًا مقنعًا لفَكِّ الارتباط؛ فاعترضْتَ على فستان الزفاف!

لا أعاتبُك، ولا أريد أن أعرف السبب الحقيقيّ الذي استغرقْتَ هذه السنوات من عمري كي تتركَني، يُطَارِدُني لقبٌ لا ذَنْبَ لي فيه، كلُّ ما أريده أنْ تبتعد عن نومي كما ابتعدْتَ عن صَحْوِي!

❊ ❊ ❊

obeikan.com

براءة

ظَلَّتْ ممسكةً بالكتاب، لا تستطيع أنْ تَقْلِبَ الصفحة، فلم يكن بإمكان الحروف والكلمات أنْ تُبْعِدَ ناظرها عن الصغيرة التي تصنع من الرمال بيتًا بالقرب من أُمٍّ تحتضن لمساتُها ونظراتُها الطفلةَ.

لم تع من الكتاب شيئًا، كانت تُقَلِّبُ صفحاته فقط كلَّما أحسَّتْ بقدوم آخرين، أو الْتَفَتَ أحدهم إليها؛ حتى لا ينتبه أحدٌ إلى تعلُّقِها بالبنت. تتظاهر بالقراءة تظاهرها بالبراءة من فُحْشها القديم.

obeikan.com

تتلاحق الموجات، تقتَربُ من اليابسة وتبتعد، لكنَّها لا تُغَيِّر من ماهيَّة البحر أو الأرض شيئًا.

كانت تعرف كيف هي حياة اللُّقطاء، ومجهولي النسب في الملاجئ ودُور الأيتام، لكنها لم تعرف أن تَصُدَّ موجه، أو أنْ تحجزه دون العبث بها. البحر يُغْرِقُ الأرض إذا لم تحتمي بصدَّادات الأمواج، بَلَعَها في وحدتها. ثم لم تستطع المواجهة بإثْمها المتكوِّر بين يديْها، ورجليها.

رَحَلَتْ، عاشت أكاذيبها حتى جاءت الموجة التالية؛ ذَوَّبَتْها فيها، كأنَّها بيت من الرِّمال غمرته المياه؛ فأصبح أنقاضًا.

كان ثَرِيًّا لا يَأْبَهُ لمسألة عُذْرِيَّتِها، بَهَرَتْ عينيها لآلِئُهُ. اشترط الزواج في مدينة عمله بعيدًا عن أعين زوجته، وألَّا تنجب طفلًا منه؛ فَلَدَيْهِ كفايته في العلن، ولا يحتاج المزيد في الخفاء.

تركَتْها رضيعةً أمام بيت جارتها المُهَرْوِلة مع زوجها بحثًا عن بذرة للحياة، يَتَفَيَّآ عليها بظلالهما، ويَرْوِيَاها من شوق لهفتهما إليها؛ لتكون ثمرة زواجهما الطيِّب دون جدوى، فقد أرادَتْ أن تكون حُرَّةً خفيفة حتى تستمتع بذوبانها الجديد.

سنواتٍ لم تملَلْ خلالها من غُرْبَةٍ، حتى في الأيام التي يعود فيها عشيقها إلى عائلته، كانت تَجِدُ ما يُسَلِّيها دومًا بما لديها من الأموال التي أحبَّتها حتى لم تحتمل لها فراقًا. هذه المرة لم يستطِعْ هو فراقها طويلًا، فعادت معه لتلتهم الغيْرَةُ قلبَها من حُبِّه أولاده.

عادَتْ تبحث عن ابنتها، لم يكن صعبًا العثور عليها بِصُحْبَةِ الجارة وزوجها، تَبِعَتْهما حتى شاطئ البحر، لا تستطيع الاقتراب، أو الإفصاح عن شخصها، تُمَزِّقُ كلمة (ماما) غشاء قلبها، تَتَمَنَّى لو أجابتها.

تَرَى براءة الصغيرة، وتفَكِّر في حياتها، يَعْتَمِلُ في ذهنها الصراع، يتشتَّتُ مع رَنَّة الهاتف، يُصبح ذَرَّاتٍ تتلاشَى مع ندائه، وجوابها بالعودة خلال وقتٍ قصير.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

فردة وحيدة

يحمل الشِّوَال على كتفِهِ، يأخذ عصاه الخشبيَّة، يحْجَل خارجًا. في طريقه للخروج من المنطقة الشَّعبيَّة المكتظَّة بالمنازل الضيَّقة المتلاصقة؛ حتى إنَّك لا تعرف نهايةَ أحدها من بداية الآخر. يَلقَى أُمَّه التي تفرز قِطع البلاستيك؛ الزُّجاجات في كَوْمَة، وزجاجات المياه في كَوْمَة أُخرَى، وقِطع البلاستيك السَّميك في كَوْمَة ثالثة. هكذا حالُها هي ونِسْوَةُ الحي، تَصِيح به:

obeikan.com

- خَلِّي بالك من رجلك إِوْعَى تدوس على إزاز.
- عارف: لحد ربنا ما يِفرِجها ونجيبلك شبشب! عارف!

يُتَمْتِمُ:

- كُل يُوم نفس الكلام! ولو ربنا فرج مش حنجيب الشِّبشب علشان ألبس منه فَردة واحدة، والتانية نعمل بيها إيه؟! أَلَبِّسْها للعصاية! يا رب عم حجازي ما يْكُنْش طلع بدري، علشان أركب وراه على العجلة، أهوه!

يصيح:

- عم حجازي! عم حجازي!
- إيه، سارح؟ اطلع!

يصل إلي أحد تجمُّعات صناديق القمامة الممتَلِئَة.

- بس نَزِّلْني هنا!

يلقي عصاه، ويتسلق صندوق القمامة بِيَدٍ، بينما تَشْرَعُ الأُخرَى في نَبْشِ الصندوق بحثًا عن البلاستيك. يفُكُّ الأكياس المربوطة، يستخرج منها ما يَنفَعُه، ويضعه في الشِّوَال المُعَلَّق على كتفه. يَنْزِل ويلتقط عصاه،

يبحث عن صندوق آخر. ويُكَرِّرُ العمليَّة طوال اليوم حتَّى يَمْلأ شِوَاله.

- إيه اللي في الكيس ده؟! شِبْشِب!

تَتَقَافَزُ الفرحة على ملامحه، (شبشب) لِقَدَمِهِ السَّليمة! يستخرج الكيس، يُفرِغ محتوياته، يلتقط (الشبشب):

- إنَّه فَرْدة واحدة! فَرْدة واحدة يَسَار!

يتمتم:

- المنحوس منحوس!

يُبَعْثِرُ محتويات الكيس عَلَّهُ يَعْثُر على فردة يمين. لا يَجِدُ، يأخذ فردة (الشبشب) في شِوَاله ويستمرُّ في تَجْوَاله. يعود لأُمِّه في المساء.

- شوفتي لقيت إيه النهاردة؟!
- إيه؟!

يُخْرِج فردة (الشبشب).

- بَسّ دي شمال!
- مَهُو حظي! لو رجلي اليمين هيَّ المقطوعة كنت

obeikan.com

لَقِيت فردة يمين!

يَعْمَلُ كلَّ يوم، يأمل أنْ يجد فردة يمين! كلُّ مرَّة يتجدَّد أملُه، لكنْ لا يُسْفِرُ عن وِلَادَةِ حُلمه.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

صَوْتٌ عالٍ

يَتَسَلَّلُ اليَأْس إلى نفسه في موجاتٍ تَتَابَع في عُلُوٍّ وهبوط مع احتياجه، لَمَّا ترَكَ أحدَ عشَرَ عامًا تمرُّ بلا طائل. في لحظة من لحظات الأمل قرَّر التشبُّث بالحياة، لن يترُك عدمَ عمله بالمؤهِّل التعليميّ يقتله، اشترَى بكلِّ ما معه عربة خشبيَّة قديمة، وحمارًا لا يزال يستطيع السَّيْر رغم عظام جسده البارزة. لجأ لجارِه تاجر الخُضَرِ ليبدأ عملًا حلالًا.

* * *

obeikan.com

تخرَّجَ في الجامعة، لم يستغرِقْهُ التفكير في العمل كثيرًا، بِسُمْعَةِ والِدِه وشهرته حصلَ على عملٍ ذِي دَخْلٍ جيِّدٍ بسهولة. أصبح شخصيَّةً بارزةً في المجتمع سريعًا.

* * *

يَبْدَأُ رحلته اليوميَّة؛ من شارعٍ، إلى زقاقٍ. يَكِيل نصف كيلو لهذه، وربعًا لتلك. ينادِي بأعلى صوتِه على بضاعته - لعلَّه يُلْفِتُ نظر المشْتَرِين- حتَّى بُحَّ صوته، فكَّر أنَّه يحتاج إلى أنْ يعلُوَ صوتُه أكثر. عند بائعي الأدوات المستعملة وَجَدَ ضالَّته، بَطَّارِيَّة سيارةٍ قديمة ومُكَبِّر صوتٍ تَوَالَتْ عليه الأيام حتى زهده صاحبه! وهكذا صَدَحَ صوتُه في أرجاء الشوارع التي تقودُه إليها حمارته، أو قدماه إذا مَلَّ الركوب.

* * *

لم يَكْتَفِ بمكانَتِه المرموقة وَسْطَ مُحيطِه الخاص. فكَّر أنه يجب أنْ يَصِلَ إلى ناس أكثر، يجب أنْ يعلوَ صوتي. وجد ضالَّته في البرامج الحِوارية. فأطَلّ من عِدَّة شاشات يَصْدَحُ بصوته في قضايا المجتمع.

* * *

أَحَسَّ بكِيَانه أخيرًا، لم يَعُدْ يشعر بغُصَّةٍ في حَلْقِه جَرَّاءَ قِلَّة العمل. أصبح الآن يعمل، تصالَحَ مع الأحد عشر عامًا التي قضاها في التعليم، فَهُوَ يستطيع أن يقرأ ويكتب ويُحَاسِبَ المشترِين بسهولة، لا يُمْكِن لتاجرٍ أو بائعٍ أن يُغَالِطَه في الحساب كما يفعلون مع أقرانه غير المتَّعلمين. هكذا أَقْنَعَ نفسه، لِيُذِيبَ طعم المرارة التي يجدُها كلَّما خلَى لنفسه.

* * *

دَفَعَهُ إحساسُه المتعالي بذاته لِخَوْضِ تجربةِ الانتخابات، لم يَلْقَ صعوبةً تُذْكَرُ في الوصول إلى الكرسيّ. أصبحَ صوتُه أعْلَى، يشارك في تشريع القوانين التي تُحَدِّدُ حياة الناس.

* * *

قادَتْه حمارته إلى الحيِّ الهادئ، تَردَّد قليلًا، لكن ما لبثَ أنْ قال لنفسه:

- أَلَا يعيش فيه ناسٌ؟! أَلَا يحتاجون إلى طعام؟! بضاعتي رخيصةٌ عمَّا في محالّهم المجاوِرة، (البحر يحب الزيادة)، لا أحدَ لا يحب أنْ يوفِّر من ثمن أي شيء يشتريه. صَدَحَ بصوته، لم يستَجِبْ سِوَى عددٌ

لم يتجاوز أصابع يَدٍ واحدة، لكنَّه تشَجَّعَ ليعلوَ صوتُه أكثر فأكثر، فتح مُكَبِّرَ الصوت، نادَى على بضاعته من خَضْرَواتٍ، وتَغَزَّلَ بصوتٍ ممدود في الطماطم.

استيقظَ من نومه على نداء الطماطم، ارتدَى (رُوبَه)، خرج إلى الشُّرْفَة:

- إنت يا بيَّاع الزفت، إنت يا بِتَاع الطماطم، خُدْ بَعْضَك وامشِ بميكروفونك ده قبل ما أطلب البوليس!
- ليه؟! هُوَّ أنا فى مِلكك؟! أنا في شارع الحكومة!
- الحكومة دلوقتي حتيجي تأخدك علشان الإزعاج!

ابتعَدَ يَجُرُّ قدمَيْه، وقد عاودته غُصَّةُ حَلْقِه، ضَغَطَ ماء دَمْعِهِ علَى جَفْنَيْهِ، عادَتِ المَرَارة إلى حَلْقِه رغم وُجُودِهِ وَسْطَ أُناسٍ لم يحرِّك أحدُهم لسانًا من أجله، فَلَمْ يَعْنِ وجودُهم له شَيئًا.

❊ ❊ ❊

خَطَأ مع سَبْقِ الإصْرار

- لن تخرجي من البيت.
- لن أبقَى فيه دقيقةً واحدةً إلى أنْ نَرَى حَلًّا في يَمِين الطَّلاق الذي رَمَيْتَه وَسْطَ أصحابك في المقهَى.
- لنْ يقعَ، كان هَرَجًا مع الرجال!
- سوف أسْأَلُ الشيخ، وأعرف، عندها سوف أَعُودُ.
- قَسَمًا باللهِ إذا خَرَجْتِ من المنزل، ولو قال الشيخ: إنَّه لا يَقَعُ؛ ستكونين طالقًا. ولْنَرَ كيف ستعيشينَ في الدنيا دُونِي؟!
- سوف أعيشُ مثلما كنتُ أعيشُ قبلَكَ.
- إذَنْ، مع السلامة!
- يَدْفَعُهَا للخارج، يدْفَعُ البابَ خَلْفَها دَفْعَةً ارتجَّت لها جَنَبَاتُها.

* * *

- غلطانة، لا يصح أن تتركي بيتك لأي سبب، كيف ستعودين؟! وكيف ستعيشين؟! لقد تنفسَّنْا الصُّعَدَاء بعد أنْ تزوجْتِ. تَعُودِينَ لنا مرَّة أُخْرَى، ومَعَكِ طفل؟!

* * *

في العمل لا تَتَوَقَّفُ التعليقات الهامسة:

- ماذا يعني يَمِين؟! لِمَ لا تُسَيِّرْ أمورها؟! هل يَجِدُ أحدٌ زواجًا هذه الأيام؟!
- ما زالتْ صغيرة، اللهُ يهديها، وتَعُودُ له لِأَجل الولد.
- لمْ تَجِدِي سوى هذه لتَقُصِّي عليها مشاكِلَكِ مع زوجك؟! كانت فَلَحَتْ في زواجها!
- انظري كيف ينظر إليها؟! أَلَا يعرفُ زوجتَه أحد؟! يوقظها قبل أن تخطفه منها من أجل ابنها. وتدفعه لترك عياله الثلاثة.
- لا، آمال أرملة، بَقِيَتْ وحيدةً تربِّي أولادها، أَمَّا هذه فَطُلِّقَتْ، أي تُرِيدُ الزواج ثانيةً، وفَكِّرِي مَنْ تُرِيدُ؟!

* * *

تَنْغَمِسُ في العمل، تَتْرُك أصواتَ الجمهور المتزاحِمِ أمام نوافذ السِّجِلّ تعلو؛ حتى تُغْرِقَ فحيحَ المكتب.

- يا ابنتي، أنا تَعِبْتُ، أريد استخراج بَدَلَ فاقدٍ للبطاقة، مَرَّ شهر ولا نتيجة!
- لا بُدَّ من ضَامِنٍ يا حاجَّة.
- من أين؟! ولدي الذي ربَّيْته، وأنفقت شبابي عليه، طَرَدَني من بيتي مِنْ أجل أنْ يتزوَّج، وليس لي أقارب!
- لا أعرفُ يا حاجَّة، لا بُدَّ من أَنْ يوقِّع على الورق ضامِنٌ، ولو أنْ يكون أحدًا من جيرانك.
- من يستطيع أنْ يفعل هذا بأُمِّه؟! صحيحٌ: من يرَى ابْتِلاء غيره يَهُون عليه ابتلاؤُه.

أفاقت من شرودها على صوتٍ هامسٍ خلفَها:

- ستجدينَها الآن تقول لنفسها: هل سيعمل ولدي هذا عندما أكبر، شَهْرٌ أو اثنان وستتركه لوالده، وتبحث عن حالها.
- لماذا؟! هل هي أول من بقيَتْ دُونَ زواجٍ لتربية أولادها.
- لا، ليست الأُولَى، لكن كما تَرِينَ؛ كُلُّهُنَّ أرامل، نادرًا ما نجد مُطَلَّقَة.

* * *

وافقَتْ على الارتباط بأوَّلِ عجوزٍ تقدَّم إليها بعد العِدَّة، لكنَّها تراجَعَتْ عند عِلْمِ زوجها السَّابق، وتهديدِه بأَخْذِ وَلَدِهِمَا منها، لا تستطَيع الزواج قَبْلَهُ؛ لِتَؤُولَ الحضانة إلى أُمِّها.

حتى عندما أحاط بها بحر اليَأْسِ، وقَرَّرَتِ الرجوع إليه، هالَتْها مفاجأةُ زواجِهِ العُرْفِيّ. هي الأخرَى لم تَسْلَمْ من عُرُوضٍ مماثلة، آخِرُها من موظَّفِ البنك الذي حوَّلَتْ إليه راتبها؛ هربًا من محاولات موظَّفِ الخزينة المتكرِّرة لإقناعها بالزواج في السِّر من أجل بقاء ابنها معها، لم يكتف بقولها:

- الذي يعمل شيئًا حلالًا؛ لا يقوم بعمله في السِّر.

* * *

أُمٌّ تحمل صغيرَها على ذراعها، وتَمُدُّ الأخرَى بشهادة وفاة رجل وبطاقتها:

- أريدُ عَمَلَ بطاقةٍ عائليِّةٍ.
- أَنْتِ مطلقة؟ أمْ أرملة؟
- مُطَلَّقَةٌ ، لكن مات بعدها مباشرة.
- لم ترثي شيء؟!
- ماذا أرث؟! كان فقيرًا، كسُولًا، يعملُ يومًا ويبقَى

عشَرة بلا عمل، أنا من تَعْمَلُ وتصرف على العيال، وعندما رفضْتُ أنْ أعطِيَه النقود الَتي أدَّخِرُها من أجل إيجار الشقة، طلَّقَني ورجعت إلى بيت أهلي.

تَتَرَدَّدُ وهي تراجع البيانات، تنظر لشهادة الوفاة، وللسِّنِّ الصغير لصاحبة الطلب، تحسم الأمور لصالح صوتٍ في رأسها يُلِحُّ في إصرار، تكتُبُ أرملة، تُخْبِرُها أن تذهب للخطوة التالية. تنادي على من تليها في الدور.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

obeikan.com

ظِلال ممنوعة

حَلَمْتُ كثيرًا بقوَّتي، وبِبَسْط يَدَيَّ لكلِّ لاجِئٍ يأتيني يطلب الرَّاحة بعد طُولِ مَشْيِهِ في هذه الدنيا.

لم أستنكِرْ حُلْمِي يومًا، بل رأيتُه لا يتَطَلَّبُ سوى وقتٍ يجب أنْ يمُرَّ ليأتيَ بزمن آخر تكون فيه حالتي أخرى، لكنَّ أحدهم - ولسببٍ أجهَلُه- قرَّر أن يُبَعْثِرَ أحلامي مع الرِّياح، أَعْمَلَ فيَّ أدواتَه، ثم وقف ينظر إليَّ في بلاهَةٍ ويديَّ وأصابعي مبعثرة حوله على أرضِ الشَّارع الطَّويل. الغريب أنَّه كان مزهوًّا بفعلته.

obeikan.com

وأخذ يلتقط الصور لي وأنا مكسورة الأيدي حتَّى أذرعي التي تركها لم تسْلَمْ من بعض الأذَى. يأتي بُلَهاءُ كُثر يلتقطون الصُّوَر لي وهم فرحون، لا أعلم لماذا هذه الفرحة؟! والبعض يقف إلى جواري من أجل صورة.

لا أحد يستطيع اللجوء لِظِلِّي كما كانوا يفعلون مع جدَّتي التي كانت تقف شامخةً مادَّةً أذرعها ويديها في كل اتجاه مُلْقِيَةً ظلالها على كُلِّ عابر. تاركةً جِذْعَها لِكُلِّ مُتْعَبٍ يُلْقِي ظَهْرَه عليه.

أنا هُنَا بعيدةً عنها، وَحِيدَةً لا أَجِدُ مَنْ يدافع عَنِّي، ماذا فعَلْتُ ليقطعوا أيادِيَّ كلَّما نَمَتْ من جديد، تمنَّيت كثيرًا لو أمكَنَنِي رؤية أَحَدِ تلك الصور التي يلتقطونها لي، ولكن كيف لي أنْ أنْطق وقد خلقني الله بَكْمَاءَ. لكنه أراد أنْ أرَى نفسِي فأرسَلَ تلك السيَّارة الكبيرة ذات الشبابيك القاتمة التي نزل رُكَّابها يتأملونَنِي، ويتكلمون عن جمال تهذيبي. تهذيبي؟! ألم أكن مهذَّبة من قبل؟! طالَعْتُ نفسي في النوافذ المغلقة، ما هذا؟! لِمَ أنا مثل الكرة هكذا؟! وما هذان التجويفان الدائريَّان؟! وهذا التجويف الغبي المقوَّس؟! ما هذا الذي فعلوه؟! ماذا يُعجبهم في هذا؟! هل أغْنَتْهم سياراتُهم عن الاحتماء بي؛ ففعلوا ما رَأَوْه جميلًاولم يفكروا في ما يسببه لي من ألم؟! أنا الكائن الحيُّ مثلهم.

آي! آي! الآن يستخدم أدواتٍ باردة - أيضًا- ليزيدَ في عذابي. اتركوني! أريد أن أكبر، وأَمُدَّ أذرعي، وتُورِف أوراقي ظِلًّا لكُلِّ مارٍّ؛ تحميه من حرِّ الشمس، أو رياح الشتاء، اتركوني لحلمي الذي لا يؤذيكم بشيء!

❊ ❊ ❊

obeikan.com

obeikan.com

غَيِّر نوعيَّة أفكارِك؛ يتغيَّر معها عالمُك كلُّه.

نورمان فنسنت بيل

obeikan.com

obeikan.com

عبـور

في تَقَدُّمٍ يكادُ يُحَسُّ لحركة السَّير البطيئة اليوم أكثرَ من المعتاد، رأيْتُهم رجالًا ونساءً تجمهروا على جانب الطريق. سألْتُ سائق سيارة الأجرة:

- هل هذه مظاهرة؟! أم ماذا؟!

أجابني وهو يرفع يده عن مِقْوَدِ السيارة ويُعِيدُها إليه:

- لا أعرف، ناسٌ أكثروا الزِّحام، وكأنَّ الزِّحام اليوميَّ العاديَّ لا يكفي.

obeikan.com

مع بِضْعَةِ دَوْرَاتٍ لِعَجَلات السيَّارات أمامنا استطعنا الاقتراب من المشهد، ليميل السائق برأسه يهزُّه مع كل كلمة تخرج من فمه:

- هذا بائع الفطير، كل عام وحضرتك بخير، اليوم رأس السَّنة الهجريَّة، الناس هذه الأيام لا تقوم بعمل الفطير في المنزل، بل تشتريه جاهزًا!

مع تَقَدُّمٍ جديدٍ رأيْتُها، نَحْلَةً تنتقل بين الزهور في نشاطٍ وسعادة، تلتقط من أحدهم شيئًا بسرعة، وتتوقف مُتحدِّثة إلى آخر، ثم تأخُذُ ما في يدِهُ وتنطلق إلى غيره، ترك ظهري مُتَّكَأَهُ في السيَّارة واقتربْتُ من الشبَّاك أتأمَّلُها، وأنتظر قدومها نحْوي، واقتربَتْ بِغُرَّةٍ غطَّتْ نصف جَبْهَتها، وابتسامةٍ أضاءَتْ وجهَها، وملابسَ نظيفةٍ لا توشِي بسائلةٍ تقضي يومَها في الشارع، وفي حرج المتأدب قالت:

- مُمْكن جنيه؟

أخرجت الجنيه وأنا أسألُها:

- هل تريدين شراء فطيرة لماما لتصنعي لها مفاجأةً؟

أجابتني وقد زادت ابتسامتها:

- فطيرة؟! لا، صاحبتي مات والدها، وتريد أمُّها أن تترك المدرسة؛ لهذا اتَّفقنا أنْ تجمع كلُّ واحدة المبلغ الذي تستطيع، وسوف نشتري ماكينة خياطة لوالدتها، وتَظَلَّ هي في المدرسة تتعلم معنا.

انْعَقَدَ لساني، توقَّفَ عقلي عن التفكير بُرْهةً كانت كفِيلةً لجعلها تلتقط العُمْلَةَ من يدي الممدودة وتطير، وخلفها ضفيرتُها المُحْكَمة الانتظام لتلمسَ وجْهي موقِظةً إيَّايَ على ضوءِ الإشارة مَتَحَوِّلًا للأخضر؛ لِتُسْرِعَ العَرَبَةُ ويدعو قلبي في خشوعٍ للفتاة، أنْ تَعْبُرَ لوِجْهَتها دون أنْ تُؤْذِيَها العجلات المسرعة.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

فيلم أجنبي

رمَقَتْهُ بنظراتٍ متقطِّعَةٍ متأمِّلةٍ، تُتَابِعُ أنفاسَه وحبَّاتِ عَرقِه الراشحة على وجهه، تتحيَّن الفرصة لإلقاء سؤالها:

- أينَ كنتَ؟
- كنْتُ في قسم الشرطة، اتصلوا بي من أجل هِبة.

قطعَتْ مشاهدَتَها للفيلم، والتفَتَتْ بكل جسدها إليه:

- قِسْمُ ماذا؟! وهِبَةُ مَنْ؟!

تنفَّسَ في عُمْقٍ، وانقضَتْ فترةُ صَمْتٍ قبل أن يقول:

- هِبَة، البنت التي نستضيفها من دار الأيتام.

obeikan.com

كانت تريد لو أنَّ الكلام في فمه مربوط بحبلٍ تستطيع أن تشُدَّهُ مرَّةً واحدةً لتروِيَ فضولها، لكنَّها آثرَتْ أنْ تتركَهُ يُخرجه من بين أنفاسه المتعَبَة كما يحْلو له. تغلَّبَتْ على فضولها، بأن تَرنُوَ إلى التلفاز بين حين وآخر.

- هِبَة هربَتْ من الدار مع واحدة من البنات، وقابلَتْهُنَّ شحَّاذة، أخذَتْهُنَّ مَعَها، تمَّ القبض عليهِنَّ بتهمة التّسوُّل، في القسم طلبت هبة منهم أنْ يتصلوا بي.

صمّتَ طويلًا، فاعتدلَتْ في جِلستها أمام التلفاز.

- سيارة؟! تشتري سيارة لولد أخذْتَه من الشارع؟!
- مَنْ هذه التي تشتري سيارة؟!
- بطلة الفيلم، الأجانب يفعلون أشياء غريبة. زميل أولادها في المدرسة لا يعرف والده، وأمُّه مدمنة، والرعاية الاجتماعية لا يوجد لديها مكان له، فأخذَتْه لبيتها، واشترَتْ له سيارة، وستُدْخِلُه الجامعة، رغم أنَّ الجامعات لديهم تتكلَّف الكثير من النقود.
- لماذا لم تَحضُر هبة معك؟
- لا أعرف! اتصلْتُ بمدير الدار التي تبرعنا لها الشهر الماضي، وطلبْتُ منه أن يحتفظ بالبنتين عنده إلى أن نرى ماذا سيحصل.
- ماذا سيحصل؟! البنتان ستظلَّان في الدار الجديدة، ما

دامت القديمة لا تعجبهما، وفقط.

- بهذه السهولة؟! أَلَا يوجد تحقيق؟! لماذا هربَتَا؟ والشُّؤُون الاجتماعيَّة، أليس من اللازم أن تعرف وتسأل؟!
- شُؤُون اجتماعية! ماذا ستسأل؟! عندنا لا يسألون!
- كما تقولين، إذا كان في أمريكا الكبيرة تركوا الأولاد في الشارع، أليس هذا الفيلم أمريكيًّا؟!
- نعم، وبعد أن دخل الجامعة، يحقِّقون معهم، لأنهما اختارَا له الجامعة التي تخرَّجَا هما فيها، ورفضَا عرض جامعة أُخرَى، ناسٌ غريبة!
- ناس عندما تعمل شيئًا تعمله بشكل صحيح.

نظر إليها طويلًا، وبِنَفَسٍ كأنّما خرج من أعماق جَوْفه سألَها:

- ما رأيُكِ؟

لفحتها حرارة أنفاسه فاستدارت:

- رأيي في ماذا؟!
- نعمل مثلهما، نأخذ هبة لتعيش معنا هنا بشكل دائم؟

أدارت رأسها إلى الشاشة لتطالعها كلمة (النهاية)، وتتركها حائرةً بين إعجابها بالفيلم، وتردُّدِها من تطبيقه.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

أميرة

في أحد محلّات بيع مستلزمات (السبوع) وقف الأب يَنْتَقي من الألعاب والحلوى الأغلى ثمنًا، حَمَل أكثر اللّفافات، وترك الأقلَّ ليحمله راضي.

- ما كُلّ هذه الأشياء يا أبي؟!
- من أجل (سبوع) أختك.
- كُلُّ هذا؟! لم تفعل هذا لأخي صلاح؟!
- يا كثيَر السؤال، هذا يوم البنت، والبنت يجب أن تكون في بيت والدها أميرة، تعيش فيه، وتتمتَّع بكل ما هو غالٍ إلي أن تذهب لبيت زوجها.

obeikan.com

كبرت (حميدة) في رَخاء والدها صاحب ورشة البلاط الكبيرة. طلباتها مُجابة بأكثر مما تتمنَّى. عندما أحسَّ الأب بدُنُوِّ الأجل، جمع أبناءَه الذكور يوصيهم بالورشة خيرًا، وبأَلَّا يتفرقوا بعد وفاته، وقد كتب لكلٍّ منهم ثُلُثَ الميراث، مُذَكِّرًا إيَّاهم بترضية أختهم بمبلغ من المال.

عندما طلبت (حميدة) حقَّها من ميراث أبيها، كان رَدُّ والدتها القاطع:

- منذ مَتَى للبنات ميراث؟! لقد تربَّيتِ على كلِّ ما هو غالٍ، وتمَّ تجهيز بيتك بأحسن جهاز، أنتِ الآن متزوِّجة من رجل يُنفق عليكِ، لا يوجد لك شيء عندنا.

تلقَّت مبلغ التَرْضِيَة الذي حَمَلَه الأخ الكبير إليها مع تأكيدها:

- هل هذا ما اتفقتم عليه؟! سآخذه، لكن أنا لسْتُ راضيةً يا راضي.

مَضَتْ السنون، زحف (السيراميك) يَكْسُو الأرضيَّات الجديدة، ويتصارع مع ما تبقَّى من القديمة، ينزعها ويحل محلها، وينزع معها عرش صُنَّاع البلاط. يَدِبُّ الشِّقاق، ويحاول كل أخٍ النجاة من شبح الإفلاس،

لكنَّ عجلة العصر دارَتْ وتبدَّلَتْ الأحوال بزاوية مستقيمة؛ ليبقى راضي وحيدًا في الورشة الخرساء.

عندما أنجبت امرأته بنتًا رفرف قلبُه فرحًا. في السوق الذي يَضُمّ بائعي (الحمُّص) انتقَى ما رآه جميلًا، وثمينًا من الألعاب والحلوى؛ لكنَّه تراجع عن الشراء من البائع الأول مُتَّهِمًا إيَّاه بالمغالاة، حتَّى وصل لآخر بائع، وقد تسرَّبَتْ أمنياته بإقامة يوم يَحْكِي عنه الحاضرون كما تحاكوا بيوم أخته، تسَرَّبَتْ الأمنيات واحدة تلْوَ الأخرَى؛ فسأل عن أرخص لُعبة، وأقلِّ عدد يمكنه شراؤُه مُضِيفًا للبائع:

- الحمص، أنا سأعبئه.

عندما سمع السعر من البائع الأخير، لم يَجِدْ كلامًا يَرُدُّ به، هذا مبلغ لا يستطيع الحصول عليه، حرَّك ذراعَيْه ودار كطير ذبيح يلفظ أنفاسه الباقية له بين الأحياء، جَرَّ قدمَيْه على غير سبيل، من حيث لا يدري تفاجَأُ بحميدة أمامه، تسأله عما جعله لا يشعر بالدنيا من حوله، يَبُوح بدون مواربة.

- هذا لأجل حقي الذي أخذتموه.
- لم نأخذ حقَّك، أبوك فعل هذا، حاسبيه في قبره!
- لماذا أحاسبه أنا؟! يحاسبه الله. الشيخ في التلفاز قال:

إنه قطع قطعة من النار وأعطاها لكم، سوف تظل تحرقكم!

يتأمل طفلته، وعينيها المغلقتين عن الدنيا، ماذا سترى حين تفتحهما؟! لن تعيش أميرةً كما عاشت عمتها، وليس هناك ميراث قد يحرمها منه.

صباح اليوم السابع، جاءت حميدة بأكياس الحمص والشموع الصغيرة.

- أنتَ الكبير يا راضي، تحدَّثْ مع إخوتك، تنازلوا لي عن نصيبي بيعًا وشراءً، مثلما فعل والدكم معكم، وسأَرُدُّ الفلوس التي أعطيتها لي بعد وفاة والدك، ولتحوّل نشاط الورشة لأي شيء مربح.

كلام حميدة لراضي كان عُودًا جافًّا، قد ينجيه من الغرق، تشبَّث به حتى أقنَع إخوته.

وهو يُهَدْهِدُ ابنته (أميرة)، أخبرها بصورة مستقبلها المشرق في عينيه، ووعَدَها أن يكون لها من اسمها نصيب، ومن ميراثه نصيب.

❊ ❊ ❊

حـب

أقف في المطبخ في اليوم المخصص للوجبة التي يختارها الأطفال، أقوم بإعدادها بنفسي، كانت فرحتهم، وتسابقهم لمساعدتي تفرحني وتثير شهيتهم، ليأتوا على الطعامِ كُله. لم أتصور يوماً إني قد أفعل هذا. كل ذلك بدأ منَ اليوم الذي أصبحت فيه مشرفة ملجأ، مهمتي الأولى متابعة دروس هؤلاء الأطفال لم يكن بوسعي الرفض برغم ثقل المهمة على نفسي.

تفحصتني العيون العشر محاولة استكشافي. بدأت لكني لم أنل سوى عدم القبول.

إلهي ماذا أفعل.

نحيت الدرس جانباً وتحدثت معهم عن أمورهم،

obeikan.com

فتغير موقفهم تجاهي باستثناء واحد كان قد استنفذ مرات رسوبه. هذا العام هو فرصته الأخيرة للبقاء في التعليم، لم يكن بداً من صرف زملائه والشرح له من جديد.

- عابد أنا عوزاك أنت بالذات تنجح.

بعينه المتفرسة، ووجهه الأسمر، وشفتيه الرفيعتين، ولهجته المتحدية:

- ليه أنا بالذات؟

خفق قلبي لمداهمته لي بسؤاله هذا.

- علشان بحبك.

أشرقت ملامحه سعادة. ولمعت عينيه البُنية، رغم أن كلمتي له كانت عفوية. في اليوم التالي أدركت أنها بالفعل كلمة ساحرة، فقد أتى إليَّ بجميع كتبه المدرسية يطلب مني أن أذاكر له جميع المواد.

يا لها من مسئولية ألقاها علي بثقته هذه. وكأن كل الحب له نيران غيرة، فتشارك أصدقائه معه الوقت الإضافي الذي خصصته له. وتشاركوا محبة قلبي.

بعد أن انتهينا من درس التربية الدينية حان موعد الغداء. ذهبوا جميعاً وظل عابد.

سألته:

- لماذا لا تذهب للغداء؟

- مش جعان، مش حضرتك لسه عطيانا الحديث "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا إكلنا لا نشبع"؟!

حقاً قلت، ووضعني في نفس الموقف حيث لا رد لي. هل يمكر بي هذا الصغير؟ أم يبني جدار ثقة متيناً بيننا؟ كيف الخروج من المأزق هل أخبره إنها سياسة أكبر منا تلك التي تفرض عليه مواعيد طعام لا يرغبها وإلا حرم من الوجبة؟ أم أقول له إنه ليس علينا الالتزام بما نتعلمه؟ أم أقول له إني إخطأت في شرح الحديث؟

فارت الأفكار فى رأسى، وهبطت مع قدمي حتى أصبحت فى مواجهة عينيه.

"أنا جعانة دلوقت وعايزاه أكل معاك، نروح المطعم سوا؟

تبسم فاستقمت متلقية يده فى راحتي لنسير تحفنا ذرات سعادته.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

عشْر سنين

نشَأنا سويًّا، يكبُرُني بعشَرة أعوام، لا يهمني هذا، أشاركه كل اهتماماته حتى لو لم يسمح عمري باستيعابها. أدوِّن أسئلتي التي يأتي ردُّه عليها:

- لمَّا تِكبري حتعرفي.

في كل ذكـرَى ميلاد لي أُراجعها وأعود بها إليه.

- أنتِ ما زِلْتِ صغيرة بعد.
- متى أسأَل؟

obeikan.com

يضحك:

- بعد عشْر سنين.

- ماذا؟! عشْر سنين كاملة؟!
- نعم، أليس هذا هو الفارق بيننا؟!
- أنا أفهم سريعًا، وسأعرف قبل عشر سنين.
- سنرى!

ترن ضحكته المبتعدة.

هكذا كبرنا، عند إلحاح الأهل علَيَّ للزواج بعد أن أكملْتُ عامي الثلاثين أحسَسْتُ بالغيرة، لماذا لم يضغط عليه أحد وقد أتم الأربعين؟! عانَدْتُ لخمس سنوات بعد، ثم استيقظْتُ على صوت زغاريد، خطبَ زميلته التي تصغرني بعشر سنوات!

لِمَ لا يكبر الرجال مثلنا؟! لِمَ لا يلتفت أحد لأعمارهم مهما كبروا؟! يحتفظون بسحرهم ورَوْنقهم، أمَّا نحن فمهما بلغ جمالُنا؛ فلا يرغبنا الكثير بعد الثلاثين. مكبَّلات بتغيرات لا يد لنا فيها، نحن سجينات عاداتنا الشهريَّة، والخلاص منها لا يعني الحرية بقدْر ما يعني اليَأْس، ما زِلْتُ بقدرتي، لِمَ يتركني ويتزوج بطفلة تصغُرُه بجيلين كاملين؟!

- أنتِ جميلة، وما زِلْتِ في أوج شبابك، وغدًا سيرزقك الله بأحسن مني.

- وأنتَ، ما يعيبك؟!
- أنا؟!

تتأمله ليُخْرِجَ كلمة، فيبتعدُ مستديرًا عنها، هربًا من سريان أشعة عينيها في جسده:

- أنا أريد واحدة تريحنِي، لا تعرف شيئًا في الدنيا سواي، لا واحدة تلاحقني بالأسئلة مثل وكيل نيابة.
- لَمْ تشتكِ من هذا يومًا! كنْتُ أسألك لأكون أقرب إليك، لم أُرِد أن يكون جهلي بشيء يهمك سببًا لبعدك عنِّي، لماذا فهمت قربي سجنًا؟!

لم تُجْدِ محاولاتي لاستعادته، كان يسوق مبررات عِدَّة، كأنها سلسلة منتظمة الحلقات، كلَّما ظنَنْتُ أنني تخلَّصت منها، ظهرَتْ لي حلقات جديدة فيها، فجأةً توقَّفْتُ عن المحاولة. تمَلَّكني إحساس زاهدٌ فقد الرغبة من طول صبره عنها.

لا أعلم كيف جرَتِ الأحداث لِتَهَبَ سُلوانًا لروحي، وضمادًا لجرحي، ألحَّت أمي لأرى عريسًا في مثل عمري، له وَسَامة أَضْفَتْ على مُحَيّاه نورًا، وزادته الابتسامة إشراقًا، لم يَعِبْه سوى رِقَّة الحال، التي لم تُؤَثِّر

في رِقَّة قلبي تجاهه.

شهور الخطبة كانت اليد التي نَقَضَتْ غزْل الحب القديم من قلبي، حتى عندما جاء يشكو لي كيف يعاني من طيش خطيبته وتصرفاتها الصبيانية، لم أجد لي رغبة في تذكيره بأنَّه من اختار، ولم أشفق لدموعه قُبَيْل كتب الكتاب، ضحكْتُ في نفسي كثيرًا عندما لمحْتُه في حفل زفافي بكامل هيْئَته يتقرَّب من إحدى الفتيات التي تصغُرُني بحوالي عشر سنوات.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

مجرَّد قُبْلة!

وهي في (السوبر ماركت) تنتقي ما تحتاجه، بينما تستمع لأغاني رمضان التي تَصْدَح في المكان، في مثل هذا الوقت من كل عام مع اقتراب العيد، كانت تذهب مع عائلتها لشراء الملابس الجديدة، وتجتمع الأُسرة في بيت الجَدَّة لعمل الكعك الذي كانت تستمتع بنقشه.

مرَّتِ السنوات، وتزوَّج أغلب قريناتها في العائلة، أصبحت تعيش بمفردها مع أبيها. لم يصادِفْها شريك العمر، رفضَتِ الزواج عن طريق الصالونات. كان عليها شراء احتياجات العيد بمفردها مع الكعك الجاهز.

جَذَبَها من حجابها، صدَرَتْ منها آهةٌ صغيرة

obeikan.com

فزعة، قبل التفاتها إليه طَبَعَ على خدِّها قُبلة رقيقة، أيقظَتْ كل مشاعرها الدفينة، وبعثَتْ الدماء في قلبها من جديد. ابتسمت له، وبَدَلَ أنْ تُوَبِّخَه طبعَتْ على خده قُبْلة مماثلة.

- هو دائمًا يصنع هذا مع خالته، لديها نفس إيشاربك.

قالت بابتسامة:

- ظَنَّ أنَّني هِي؟!

التفتَتْ إليه مبتسمةً. كانت ملامح الدهشة تملأ وجْهَهُ الصغير فَوْرَ اكتشافه أنّه قبَّل شخصية غريبةً عنهُ. لكنْ سريعًا ما رَدَّ على مداعبتها، بضحكة جَذْلة، ودفن وجهه في حضن أُمِّه.

انطلقت الأغنية التي تنبِئ باقتراب نهاية رمضان لتملأَ المكان: "تم البدر بدري، والأيام بتجري".

مَضَتْ بسرعة من المكان قبل أن تنساب دموعها، أخرجت هاتفها:

- أنا موافقة أقابل العريس.

❊ ❊ ❊

مـاء ورد

تُحْكِمُ لفَّ حجابها، تشدُّ ثوبها من الخلف ثم تشدُّه من الجانبين لتتأكد من انسداله بعيدًا عن جسدها، تأخذ الحقيبة البلاستيكيَّة اللَّيّنة، وتتأكد من وجود زجاجة ماء الورد بداخلها، تَتَحَسَّس المفتاح في نهاية الحبل الذى عَقَدَتْهُ فيه حول عنقها، تُسَوِّي ملابسها للمرة الأخيرة قبل الخروج.

obeikan.com

تسير في الطريق، تُسَلِّم على مَن ترى من جيرانها النساء والرجال على السَّواء، تَصِلُ للمسجد قبل الأذان بعشر دقائق على الأقل، تمرُّ على كل (القُلَل) المتراصَّة في النوافذ، تتأكد من امتلائها بالمياه، وتُنزِل الفارغة أو النصف ممتلئة على الأرض، ثم تأخذها إلى أحواض الوضوء تغسلها وتملَؤُها، تنزع غطاء زجاجة ماء الورد، وتضع منها عِدّة نقاط في كل (قُلّة) ثم تُرجِعها إلى النوافذ.

يرتفع الأذان تُرَدّد خلفه وهي ترتِّب السِّبَح في أماكنها، والمصاحف على الرفوف الخشبية، تمرُّ ببصرها على (الكلائم) التي تغطي الأرضيّة تتأكد من نظافتها.

عند انتهاء الأذان تشَرَعُ في صلاة السنن، ثم تجلس في صدر المكان مرحِّبة بمَنْ حضرْنَ للصلاة. بعد الفراغ من الفريضة، تمرُّ على جميع النوافذ تغلِقُها سِوَى اثنتين؛ واحدة على كل جانب تكتفي بغلقهما إلى المنتصف وترك فراغ يدخل منه الهواء ويخرج ليبقَى المسجد عطِرًا. تغلق الباب جيّدًا ثم تدفَعُه بيدها للتأكد من إغلاقه.

ذهبْتُ معها يومًا، أعجبني طعم الماء، سألتُها لماذا طعمه جميل؟! أجابتني: لأنَّه ماء المسجد.

مرَّت السنوات وماتَتْ جدتي، لم أعُدْ أذهب إلى المسجد، حتى مررْتُ به فى صلاة ظُهْرٍ فدفعني الحنين للدخول والصلاة، لم أجد (القلل)! البعض منها فقط تشرب منه المسِنَّاتُ اللاتي لا يسْتَحْسِنَّ ماء (المبرِّد)، اكتَسَتِ الحوائط بملصقات عن الصلاة، وختامها، الصيام، وفضله، الزكاة، وأنواعها، والكثير عن العبادات. وفى فراغات المشربيَّة العلويَّة ثبتَتْ ستارة سميكة. زَجَرَتْني إحداهُنَّ عندما رفعت طرفها بأناملي.

- عيب تِبُصّي على الرجالة!

كل ما أردْتُه أن أُشْبِعَ ذكرياتي بمَرْأَى المشربيَّة الخشبيَّة. صلَّيْتُ، شرِبْتُ ماءً طعمه عادي. لم تفرِحْني رؤية المسجد؛ فلقد حُطِّمَتْ ذكرياتي الجميلة له مع جدتي.

تشويه ذكرياتي كان صعبًا، لدرجة أسهرَتْ نومي في دوَّامة من الأفكار. عزمت أمري واشتريتُهم، بحثت عن مُلْصَق للمعاملات، لكن لم أعرف من أين يمكن الحصول على واحد. ذهبت قبل الظهر بقليل لأجد الكثير من النساء يحضرْنَ درسًا. انصرف أغلبهُنَّ مع الأذان. نزعت الستارة الخضراء وأبدلتها بواحدة لا تخفي لون المشربيَّة، بل تضع عليها غلالة رقيقة.

- ماذا تفعلين؟! هكذا يرانا الرجال!
- ومن سينظر لأعلى وللخلف ويدَقِّق النظر ليرى خيال إحداكُنَّ؟! هذه لن تسمح برؤيتكُنَّ، ولكنها تسمح بمرور الهواء.

رفعْتُ القارورة، وضعْتُ ماء الورد بها، أرجعتها للجهاز.

- أريد أن أشرب.

ناولت الصغيرة كوبًا من الماء.

- طعمه جميل!

تبسَّمْتُ لها وقلت:

- لأنه ماء المسجد!

❊ ❊ ❊

obeikan.com

انتِظَار

- أين الشاي يا جرجس؟
- عملته، سَأُصُبّه فقط.

يواصل مصطفى عمله في تنجيد لحاف السيدة (أم رتيبة) العجوز التي تعيش بمفردها في طرف القرية.

يأتي جرجس بالشاي مع انتهاء مصطفى من غلق وجه اللحاف الأول، فيُنَحِّيه جانبًا ويتلذَّذ بكوبه، ثم يُرجِعه فارغًا إلى الصينية.

- ارفع هذه الأكواب، وأَحضِرْ قماش الوجه الحرير من هناك.

obeikan.com

يُنَفِّذ جرجس تعليمات رئيسه، يناوله قماشًا يبدو عليه حسن ذوق صاحبته. يتناوله مصطفى وهو يغمغم:

- قماش أحسن من قماش لحاف عروس.
- هل هذا لحاف السيدة (أم رتيبة) يا معلم.
- نعم، سيدة في مثل عمرها تشتري قماش الكفن! وهِي تشتري قماش لحاف حرير! وأيضًا تريدُه بحوافّ متدلية على الجوانب من طبقتين.
- ربما تقدَّم لها خاطب!

يضحكان سويًّا ويواصلان العمل. قُبَيْل المغرب، تأتي السيدة بنفسها تقلِّب اللحاف لتتأكد من صنعته كما طلَبَتْ، تطلب من مصطفى أن يوصلها صبيُّه، فيحمل جرجس اللحاف إلى البيت. بيت صغير لكنَّه مرتَّب. على جدار وضعت أريكة بطراز عربي تعلوها صورة لرجل في أواخر الخمسينيات من عمره، على حافتها شريط أسود. تغطَّت الأرض كلها بأكلمة مختلفة المقاسات. خلعت السيدة حذائها وطلبت منه فعل المثل، ووضع اللحاف على الأريكة. نفخَتْه بضع قروش وثمرة فاكهة. أخذها شاكرًا، وهو يفكر في السيدة العجوز، وأناقة منزلها، ولحافها الحرير، وتمَسُّكها بالحياة هكذا على عكس أهل القرية، الذين ينتظرون الموت بعد أوَّل مرض يضطرهم لزيارة الطبيب.

قبل أن ينتعل حذاءَه تنبَّه لبقية القماش الحرير في يده فالتفَتَ إليها ملوحًا به:

- ما تبقَّى من القماش.
- من فضلك تعال ارْفع هذا الفرش!

يرفع فرش الأريكة، ليظهر باب يُفْضِي لتجويف في جسم الأريكة، وضعت به الأشياء غير المستخدمة لحين الحاجة إليها.

في عناية، رفعت السيدة لفّة من القماش الأبيض، عرفه جرجس فور أن رآه! وضعت باقي القماش، وأعادت القماش الأبيض فوقه، وأغلقَتْ باب الأريكة، ترك جرجس الفرش يعود لمكانه.

- كَتَّر خيرك.
- العفو يا ستِّي، ربنا يكتب لك طولة العمر.

تتبسم: الموت والحياة علينا حق، ربنا يكرمك وتعيش مثلما عِشْتُ أنا.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

الفهرس

إهداء ٥
اصابع خالية ١١
فستان ساتان ١٥
براءة ١٩
فردة وحيدة ٢٣
صوت عال ٢٧
خطأ مع سبق الإصرار ٣١
ظلال ممنوعة ٣٧
عبور ٤٣
فيلم أجنبي ٤٧
أميرة ٥١
حب ٥٥
عشر سنين ٥٩
مجرد قبلة ٦٣
ماء ورد ٦٥
انتظار ٦٩

obeikan.com